المال الحلال مايضعش!

كلُّنا معشر الموظفين ننتظر أول الشهر بفارغ الصبر... نشتاق إليه اشتياق صائم شهر رمضان لإفطارِ يوم العيد... ننسى شقاء شهرٍ كاملٍ من العمل فقط حين نقف أمام الصرَّاف...

كان (عطوة) ينتظر مثلنا ذلك اليوم، ولكن على صورة مختلفة... صورة الذئب الجائع الذي يسيل لعابه على شدقيه اشتياقًا إلى الصيد!

كلانا نشتـاق! ثم يأتي الفرج من بعد التعب... فكلانا يتعب! (لكن تعبًا عن تعبٍ يفرق)... فنحن نتعب في العمل طوال الشهر، أما هو فتعبه من نوعٍ مختلف... تعبٌ أجره وقتي غير مؤجل... تعبٌ لا يخلو من المخاطرة... يحمل مع كلِّ قرشٍ نقمةً، وحسرةً، وغضبَ المخلوق والخالق!

كان (عطوة) أكبر نشال في المنطقة... وكانت منطقة نفوذه تغطي مساحة ليست بالقليلة... اكتسب صيتًا وشهرةً على مدار سنوات من العمل! وحفر لنفسه اسمًا لامعًا في عالم الجريمة... كان لا يسلم من أذاه واحدٌ من أبناء حيِّهِ مهما بلغ حرصه... فحيله كثيرة وأساليبه مبتكرة... كان يُعَدُّ مدرسة في مجاله... استطاع (عطوة) مع الوقت أن يوسع نشاطه ليشمل جميع بقاع الحيِّ، وكافة المواصلات مستخدمًا نماذجَ مختلفة من صبيانه،

وحيلًا جهنميةً يوظفهم فيها باقتدار... فتارةً تنشب مشاجرةٌ بين امرأتين، أو بين أمٍّ وابنها، أو بين كبير وصغير... مشاجرة تحمل علامة استفهام وتعجب للمتفرج... يدفعه فضوله إليها ليجيب استفساره عما يحدث... أو شهامة تسوق صاحبها الغِرَّ إلى حيث يُراد به... تجذبه إليها كالدوامة... ويفيق الشخصُ بعد فوات الأوان على مصيبة يطيش لها عقله!

وكان صاحبنا على شقاوته وتمرُّسه حريصًا بارعًا في انتهاز الفرصة، وسرعة الانقضاض، وخفة يده المذهلة... فلم يقع مرة في قبضة شرطي أو حتى مخبر رغم سجله الحافل في عالم النشل...

وكانت تحكمه أخلاق المهنة... فكبير الكار يُحتَرم في منطقته فلا يعدو أحدٌ على واحدٍ فيها إلا بإذنه، ولا يجرؤ أحدٌ على الوشاية بغيره حتى وإن كان خصمه اللدود...

كان (عطوة) ينظر إلى ضحاياه فيتحسر على نفسه ويرثى لحاله فهو الظالم المظلوم... وإذا كان يجور عليهم ويؤذيهم فإنَّما يؤذيه شعورٌ أكبر بالنقص والدونية... فهو لم يجد من اهتم به أو أنفق عليه ليكون محترمًا مثلهم، وإنَّما وجد نفسه منذ نعومة أظفاره في الشارع وحيدًا منبوذًا لا حيلة له فيها إلا السرقة... بدأ مشواره بسرقة احتياجاتٍ أساسية كالطعام والملبس، ثم بدأ يوسِّع عمله... لا ينكر أنَّه كان مدفوعًا بدافع حقده على

مجتمعٍ ظلمه... لماذا هم أفضل منه؟! لِمَ لهم وجاهتهم في المجتمع وتبجيلهم، بينما هو لصٌّ يستتر عن أعين الناس؟!

والإنسانُ مهما كان مدفوعًا للشرَّ فهو مخلوق بمزيج متنوع من الأحاسيس... لم يكن يخلو حاله من بعض نوباتٍ صحا فيها ضميره حين يرى رجلًا مسكينًا أو امرأةً بائسةً ممن يبكون ويولولون لضياع تحويشة العمر، أو "شقى" شهر من العمل ينتظر جنيهات يتقاضاها يسدُّ بها أفواهًا جائعة...

كم عزم على أن تكون كلُّ سرقةٍ هي السرقة الأخيرة التي يتوب بعدها، لكنَّ الحرام كماء البحر كلما شربت منه عطشت!

ظلَّ (عطوة) يتأرجح رزقه بين أيامِ كسادٍ، وأيامِ رواجٍ... كان يعرف بحساباته التي لا تخطئ موعد تقاضي الموظفين رواتبهم...

وأثناء وردية عملٍ في الترام قام (عطوة) برصد ضحيةٍ جديدةٍ بدا له من هيئته أنه ذو مكانةٍ... وكان ذلك كفيلًا باستعظام ما بجيوبه، فقد كان (عطوة) خبيرًا في تقدير ما يحمله الشخص من مظهره الخارجي وثيابه...

اقترب منه ولم تمضِ لحظات حتى صارت حافظته بين يديه ليدسها بسرعة لا تُلحظ في طيات ثيابه، ونزل مسرعًا بينما لم يزل الترام يتحرك... وما كاد يخطو خطوتين على الأرض حتى اصطدم برجل في خريف العمر

يتعثر في هيئته البسيطة المتواضعة، كان يعبر الطريق غير منتبهٍ فقد كان على وجهه أركامٌ من الهموم... سقط الرجل على الأرض من شدة الصدمة... تناثرت بعض حاجياته من حوله من بينها حافظة نقوده...

لا يعلم (عطوة) ما الذي دفعه ليجمع له ما سقط منه؟! ولا كيف سلَّمه الحافظة؟! ولو أراد أن ينشلها لما لحظه مخلوقٌ من فرط سرعته وخفَّة يده، فما بالكَ بالطريق وهو خالٍ من الناس؟!

ربما رثا لحالة الرجل المتواضعة! ربما أشفق عليه من شدة الصدمة! ربما أيقظت تلك الحادثة ولو للحظات ضميره وحرَّكت شهامته! لا يدري لماذا؟!

ربما ذاق لأول مرةٍ لذَّةَ دعوةٍ طيبةٍ مسَّت قلبه، وأشعرته بأمانته المفقودة حين ردَّ له حافظة نقوده:

- الله يكرمك يا بني! ربنا لا يرميك في ضيقة! ربنا يحميك من ولاد الحرام!

نزلت كلمات الرجل على رأسه كالدشِّ البارد... أحيت في نفسه الضمير... ثم ما لبث أن وسَّده التراب... فما إن انطلق الرجل في طريقه حتى انزوى (عطوة) في جنبٍ ليحصي غنيمته...

كانت المفاجأة مشمولة بطعنة في كبريائه! لم يعثر على الحافظة التي كانت حصيلةَ جهدِ يومٍ كاملٍ... كيف وهو يسرق الكحل من العين أن يُنشل بهذه السذاجة؟! أيكون جزاؤه بعد أن أعاد للرجل حافظته أن يسرقه؟!

استشاط غضبًا... تلفَّت يمينًا ويسارًا لعله يجد السارق المخادع! لم يطل به البحث... وجده على مدى بصره يعبر الطريق إلى الجانب الآخر... جزَّ على أسنانه وتوعَّد أن يتبعه ولو ذهب ورائه إلى آخر الدنيا... لابد وأن يستعيد حافظته منه ويستعيد معها كرامته، وإلَّا سيصبح أضحوكة بين أبناء كاره...

انطلق (عطوة) في إثره على الفور... فكَّر في طريقة منطقية ابتكرها للسرقة... تعرَّض له في طريقه واصطدم به بطريقة تبدو غير مقصودة... ويبدو أن الرجل من كثرة الصدمات لم يدقِّق في وجه من صدمه فلم يعرفه... وفي لحظة كانت الحافظة في يد (عطوة)... دسَّها بسرعة في طيات ثيابه... تعجَّب من سذاجة الرجل وخيبته!

عاد أدراجه من حيث أتى... سمع نداءً يأتيه من الخلف... سقط قلبه في رجليه... ظنَّ أنَّه شرطيٌّ تابع القصة من أولها... لكنَّه تماسك سريعًا... التفت إلى الصوت الذي لا يزال يتبعه في إصرارٍ... اطمأن فلم تكن هيئته هيئة الشرطة ورجالها... وأجاب صاحب النداء:

- نعم! حضرتك تقصدني أنا؟!

- أيوه يا سيد... المحفظة دي وقعت منك!

مدَّ (عطوة) يده ليجد حافظة النقود التي كان يظنُّها مسروقة...

خاطب نفسه في فرحة:

- يا سلاااااام... الواحد النهاردة مُرزَق والرزق بينادي صاحبه!

تذكَّر الرجل الذي اصطدم به وسرقه... حزن قليلًا لأنَّه ضيع الحسنة الوحيدة التي عملها في حياته والدعوة الصالحة التي تلقَّاها للمرة الأولى منه... ثم تذكَّر حافظة النقود الأولى التي كان بالطبع لها صاحب هي الأخرى... واسى نفسه قائلًا:

- زيادة الخير خيرين... محدش يقول للفلوس لأ...

دسَّ حافظة النقود في جيبه وتحسَّس الأخرى في موضعٍ آخر... واكتفى بما سلبه في يومه، وعاد إلى بيته مسرعًا... دخل (عطوة) حجرته التي يقيم بها... وضع حافظتي النقود على طاولة صغيرة أمامه... وفي لحظة من لحظات الفخر التي يسجلها له تاريخ الجريمة في سجل بطولاته جلس يحصر غنيمته... وضع المحفظتين أمامه... وازن بينهما بأيهما يبدأ... كانا متشابهتين نوعًا في اللون والحجم... فتح إحداهما كانت بها بعض الأوراق المالية لا تزيد فئة أكبرها عن عشرة جنيهات... صبَّ اللعنات على صاحبها

ذلك المفلس... لابد أنه موظف حكومة! اجتهد يبحث في جيوبها... تفحص محتوياتها بدقَّة... إيصال كهرباء... إيصال سداد رسم مدرسة حكومية... تذكرتي قطار... وحين طالع بطاقة إثبات الشخصية تأكَّد ظنُّه أن تلك الحافظة لموظف...

- أكيد هو الراجل اللي خبطته وأنا نازل من المترو وافتكرته سرقني... شكله كحيان زي محفظته...

أسرع إلى الحافظة الأخرى... فتحها بسرعة ربما يعوِّض خيبة أمله في الأولى فالرجل الذي سرقها منه في الترام يبدو عليه الاحترام... لكنه صُدِمَ من جديد... لم تكن تحوي مبلغًا كبيرًا... اجتهد يبحث في جوفها لعله يخرج بشيءٍ ذي بال...

وجد بطاقة إثبات الشخصية لصاحبها... تفقَّد أحد جيوبها... وجد عدة كروت تحمل أسماء شخصيات مرموقة بالمجتمع، أعمالهم، وعناوينهم، وأرقام تليفونات خاصة بهم...

فتَّش جيدًا... وجد ورقة مطوية... أسرع ففتحها... إيصال أمانة... ابتلع ريقه وهو يعد الأصفار... واحد... اثنين... ثلاثة أصفار... أربعة، بل خمسة على يمين الرقم (٥)...

زاغ بصره وهو يحسب عدد الأصفار...

- واحد... اثنين... ثلاثة... أربعة... خمسة...

عدَّ مرة أخرى من الشمال إلى اليمين...

- نفس العدد... خمسة أصفار! خمسمائة ألف! نصف مليون جنيه!

- يا سلاااااااااام! هي دي خبطة العمر بصحيح! لازم أستغل الظروف... مش هفوِّت فرصة زي دي تعدِّي... الفرصة ما تجيش غير مرة واحدة في العمر!

قرَّب الورقة من المصباح المعلق من سقف الحجرة ليتأكد من المبلغ ويتعرَّف على اسم ضحيته...

- الوصل ده كنز... هساوم عليه بمبلغ كبير... هساوم الداين والمديون... دي لعبتي!

كان اسم صاحب الدين واضحًا، وكذلك اسم المدين... تأكَّد أن صاحب الإيصال هو صاحب الحافظة من اسمه المدون في إثبات الشخصية وفي إحدى الكروت... صاحب شركة (....) للمقاولات... عنوانه (....)... تليفون البيت (....)... المحمول (....)... تليفونات الشركات (....)...

فرك يديه متحفزًا وجزَّ على أسنانه كالذئب الذي يتأهب للانقضاض على فريسته، وهو يقول في نفسه:

- آدي واحد...

بحث في الكروت التي استخرجها لتوه من المحفظة حتى تعرَّف على اسم المدين وبياناته... عنوانه... وتليفونه...

- وآدي التاني اللي هبتدي بيه العملية... علا بحروف اسمه مرتين أو ثلاثة وكأنما يحفظه ويستظهره... (أحمد أمين)...

دسَّ المبلغ الذي التقطه من حافظتي النقود في جيبه... خرج من البيت... توجَّه لأقرب محل اتصالات...

اتصل بالمدين... أخبره بالأمر... ساومه في المبلغ الذي سيبيع به إيصال الأمانة له... إنَّه مبلغٌ أقل بكثير مما سيسدده لصاحب الدين...

كانت مفاجأة الرجل كبيرة... عقدت لسانه... لم يَحِرْ جوابًا...

- أستاذ (أمين)... دي فرصتك... والدنيا فرص... لازم تستغلها محدش ليه أمان... إحنا في زمن الصاحب يبيع صاحبه علشان جنيه... ودول نص مليون... وما فيهاش حاجة لما تبص لأخوك الغلبان اللي هيخلصك من دين كبير ممكن تقضي بسببه بقية حياتك في السجن... قدامك يومين ترد عليَّ... ولو ضيَّعت الفرصة هتندم!

أُغلقَ الخط... دارت الدنيا برأس (أمين)... يضرب أخماسًا في أسداسٍ... يفكر في كلام صاحبنا... يزينه الشيطان له... ثم يفيق فيطرد عنه وساوس الشيطان... ويذكر الله وحسابه...

ثم أغلق منافذ الشيطان إلى نفسه وعقَّب قائلًا، يخاطب نفسه بصوتٍ مسموعٍ:

- أنا عندي عيال... عايز أربيهم من حلال... وبعدين أنا ظروفي مش صعبة للدرجة دي وإن شاء الله هسدِّد المبلغ في معاده من مكسب الصفقة اللي أنا داخل فيها...

قرر (عطوة) الاتصال بالدائن لينفذ المساومة فلربما فشلت المساومة مع الأول... وربما تنجح مع الاثنين فيحصد مبلغًا ربما يساوي مبلغ وصل الأمانة كله! وأجرى المكالمة:

- (الإسناوي) بيه؟!

جاءه الردُّ من الطرف الثاني:

- آلو... أنا (الإسناوي)... مين معايا؟!

- فاعل خير...

وتحدَّث بجرأة لصٍّ محترفٍ يعشق المال ويتمسك بالفرصة "بإيده وسنانه"...

لم يكن الأمر مفاجأة للدائن... فقد كان ينتظر تلك المكالمة ويتوقعها منذ أن سُرقت حافظة نقوده...

كان رجلًا محنكًا... ابن سوق... يعرف جيدًا كيف يلاعب ألف واحد من عينة صاحبنا إيَّاه...

أغراه وطمَّعه... أكَّد على أهمية إيصال الأمانة... أقحم نفسه معه في مساومة... اتفقا بعد جهدٍ... حدَّد موعدًا في مكتبه بالشركة التي يمتلكها يوم كذا... الساعة كذا...

أطارت الفرحة عقل (عطوة)... حلم بالمقابلة... لكنَّه كان يتخذ لكلِّ شيءٍ تدابيره... فماذا لو ذهب إليه فأعطاه وصل الأمانة ولم يعطه المال؟!

- هو أنا تلميذ! طبعًا هروح من غير الوصل... وبعدين لسة قدامي الراجل التاني هاخد منه فلوس هو كمان! لازم أحتفظ بالوصل معايا...

جاء يوم المقابلة... دخل (عطوة) الشركة وسأل عن صاحبها (الإسناوي) بك... فدلُّوه على مكتب السكرتارية... أبدوا تجاهه اهتمامًا زائدًا... وأمر (الإسناوي) بك فدخل عليه (عطوة)... عرفه (عطوة) فقد كان لا ينسى أبدًا زبائنه...

كان مكتب رجل الأعمال فخمًا... ديكورات مبهرة... أثاث فاخر... ابتلع (عطوة) ريقه نهمًا وهو يمنِّي نفسه بمبلغٍ كبيرٍ...

تذكر (الإسناوي) بك وجه النشال الذي سرقه في الترام فقد كانت المرة الأولى التي يستقلُّ فيها وسيلة المواصلات تلك، وما ندم على شيءٍ أكثر من ندمه على ذلك...

حيَّاه (عطوة) في وجلٍ، وردَّ (الإسناوي) بك التحية بعدم اهتمام... تحية باهتة لا تنمُّ عن مودةٍ، وما تخفي الصدور أكبر! لم يظهر أيٌّ منهما بالطبع معرفته بالآخر...

بادر (عطوة) بالكلام فقدَّم نفسه أنَّه واسطة خير من طرف شخصٍ لا يريد أن يفصح عن اسمه، أما هو ففاعل خير يقوم بخدمة ولن يجني من وراءها جنيهًا واحدًا...

لم يلتفت (الإسناوي) بك إلى كلامه ولم يعره أيَّ اهتمامٍ متجاهلًا وجوده... تناول سماعة التليفون وأجرى مكالمة تليفونية مقتضبة أخبر صاحبها بسرعة الحضور... أضاء اللمبة الحمراء، ثم خاطب السكرتيرة بلهجة آمرة:

- محدش يدخل علينا إلا (....)! وأسرَّ إلى السكرتيرة باسم استثناه، لم تلتقط أذنا (عطوة) حروفه...

أراد (عطوة) أن يلفت نظر الرجل إليه فتنحنح وسعل بصورة متقطعة مفتعلة...

رمقه الرجل بنظرة حادة ثم انفجر فيه في حدَّة وبصورةٍ مباشرة فجَّة:

- إنت فاكر نفسك هتضحك عليا؟! أنا عارفك من أول لحظة شفتك فيها... وفاكرك كويس... يا حرامي "الترومواي"... كنت متأكد إنك هتكلمني وتحاول تبتزني!

امتص (عطوة) الصدمة بمرونة يحسد عليها... كشف عن وجهه القبيح، وببجاحة اللص المتمرس قال:

- على العموم أنا كنت عامل حسابي... مش هتقدر تعملي حاجة... الوصل في مكان أمين... أنا هوريك الحرامي اللي مش عاجبك هيعمل إيه! وهتشوف هعمل بالوصل ده إيه!

طبعًا كان يفكر في صفقته مع المدين بعد أن طارت صفقته مع صاحب الإيصال...

قطع ضجيجهما وقعُ طرقاتٍ على الباب ينذر بضيفٍ يريدُ الدخول، وإذ بالمفاجأة التي ألجمت (عطوة)... عرَّف الضيف نفسه، إنَّه الأستاذ (أحمد أمين)...

ارتبكت حسابات (عطوة)... تلعثمت الكلمات بين شفتيه وهو يواجه نظرات الرجلين النارية المسددة إليه... كشفته... عرَّته... فضحته...

سلَّم الأستاذ (أمين) على (الإسناوي) بك ولم يحيي (عطوة) فقد كانت الأمور على المكشوف...

وجَّه (الإسناوي) بك حديثه إلى (عطوة) في تحدٍّ سافرٍ:

- ما فيش داعي أعرَّفك على الأستاذ! أكيد انت عارفه كويس؟!

تمنَّى (عطوة) لو انشقت الأرض وابتلعته... فقد فشلت خطته... ولم يجنِ مليمًا واحدًا من الصفقة بعد أن أصبح إيصال الأمانة مجرد ورقة...

خاطبه الأستاذ (أمين) مباشرة بلغة محتدة غاضبة:

- مش أنا اللي أقبل الحرام على أولادي... لو قدِّمت لي مال الدنيا كله... مش ممكن آكل أنا وولادي الحرام!

تكلم (الإسناوي) بك بلهجة واثقة وهو ينظر مباشرةً في عيني (عطوة):

- إنت فاكر الناس كلها حرامية زيك؟! الوصل اللي معاك بلِّه واشرب ميته! ما لوش قيمة إحنا بنتعامل بالكلمة... والشرف هو العقد اللي بيننا... يا ريت تكون اتعلمت النهارده درس ينفعك... دوَّر على عمل شريف أحسن... المال الحرام ما بينفعش والحلال ما فيش أحسن منه...

كان (عطوة) يعلم جيدًا أنَّه في مكتب رجل الأعمال وبإشارة واحدة من إصبعه الصغير لا يستطيع الخروج على قدميه... ومن الممكن أن يسلِّمه للشرطة بمكالمة تليفونية...

لم يكن أمامه إلا الحيلة... راوغ كالثعلب... فأطرق برأسه معتذرًا... تصنَّع التوبة... تظاهر بالرغبة في البحث عن عملٍ شريف... أظهر التحمس للأمر أكثر من حماستهما... خرج من المكتب تودعه نظرات الرجلين الشفيقة ودعوات التوفيق والفرح بتوبته... ربما عاش (عطوة) للحظةٍ إحساس التوبة ووهم التمتع بلذة العيش الحلال! ربما تسللت إليه الفكرة ولو كخاطرة! ربما اختلطت بالدعوة الفائتة التي تلاقها من الرجل الذي أعطاه الحافظة ثم سلبها منه!

لكنَّه خنق الفكرة في مهدها وأسرع ليقول:

- طبعًا دول ناس شبعانين... جيوبهم عمرانة... بيتعاملوا بالألفات... مش حاسين بالغلابة اللي زيي... يفرق إيه مع رجل أعمال زي ده لو دفع ألفين ولا تلاتة لغلبان زيي... على العموم هدوَّر في المحفظة تاني يمكن ألاقي شيك ولَّا وصل أمانة نسلِّك بيه قرشين!

*****